Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الشفوى، وهذا بالضبط ما نعثر عليه فى النصوص الشعرية والنثرية وبخاصة المسجوعة منها. فمن التعارض بين الشفرة المستخدمة (النطق- الإنشاد- التلاوة) وبين رغبة المبدع فى أن يجعل عمله خالدًا يحفظه الزمن برزت أشكال بلاغية عديدة وعلى رأسها السجع[1]، وقد أنتبه "والترج. أونج" إلى ذلك، إذ يقول: "فى الثقافة الشفاهية الأوّلية، عليك، لكى تحل مشكلة الاحتفاظ بالتفكير المعبّر عنه لفظيّاً واستعادته على نحو فعّال، أن تقوم بعمليّة التفكير نفسها داخل أنماط حافزة للتذكر، صيغت بصورة قابلة للتكرار الشفاهى... إما فى أنماط ثقيلة الإيقاع، متوازنة؛ أو فى جمل متكررة أو متعارضة؛ أو فى كلمات متجانسة الحروف الأولى أو مسجوعة؛ أو فى عبارات وصفية أو أخرى قائمة على الصيغة؛ أو فى وحدات موضوعيّة ثابتة... أو فى الأمثال التى يسمعها المرء باستمرار وترد على الذهن بسهولة، وقد صيغت هى نفسها على نحو قابل للحفظ والتذكر السهل، أوْ فى أشكال أخرى حافزة للتذكر".[2] والسجع يُعد واحدًا من هذه الأشكال، وأحسب أن استخدامه قديمًا كان راجعًا إلى وعى بقيمته، من حيث إنه يسهم فى منح النص طابعًا بنيويًا واضحًا ومنتظمًا، يفرض نفسه على الذاكرة؛ ومن هنا كان إدراجه -فى النظريات النقدية الحديثة- ضمن حيل الذاكرة كأحد بنيات "فن تقويتها"،[3] فالسجع بوصفه بنية إيقاعية هو مطلب من مطالب التفكير الشفاهى الذى يميل "إلى أن يكون إيقاعيًا بشكل ملحوظ لأن الإيقاع -حتى من الناحية الفسيولوجيّة- يساعد على التذكر".[4]

وعندما نعى تلك الأمور فإننا نفتح بابًا لتلمُّس ارتباط أدوات الإبداع بالسياق الخارجى وبمطالب مرحلة ما بعد الإبداع التى يوضع لها اعتبار منذ اللحظة الأولى من ميلاد النوع الأدبى. لكن الأدوات التعبيرية تتحرر بالتدريج من

---

(١) ولعل أوّلية الأداء الشفوى فى التلقى تبرر الاستمرار فى توظيف الأشكال البلاغيّة الإيقاعية فى نصوص مرحلة التدوين فى العصر العباسى، فاستخدام القافية والسجع وغيرهما من أدوات البلاغة ذو تعلّق بمسألة الإلقاء والإنشاد وبشفاهية التواصل فى محافل القول.

(٢) الشفاهيّة والكتابيّة، والترج. أونج، ت. حسن عز الدين، سلسلة عالم المعرفة، ع ١٨٢، فبراير ١٩٩٤، ص ٩٤.

(٣) هذه هى التسمية التى أطلقها "بارت" على البلاغة عمومًا، إذ يدعوها "فن تقوية الذاكرة".

(٤) الشفاهيّة والكتابيّة، والترج. أونج، ص ٩٤.